قرأت العدد الماضي من الآداب

بقلم
خليل هنداوي

كم كنت مغرىً بالنقد منذ مطلع حياتي الادبية ! وكم بتّ اخشاه وأتجنبه اليوم لا خوفاً ولا عجزاً. ولكن التجارب علمتني ان الناقد – مهما حرص – لا ينظر الا من زاويته الشخصية المحدوده . ولا شيء اكثر تميّعاً من الذوق الادبي . فما تراه جميلاً هنا يراه غيرك قبيحاً ، والرائيان صادقان في رؤيتهما، لأن كل راءٍ يستمد من ذوقه وثقافته ودوافع تكوينه الادبي. والقاريء نفسه يستجيب حين يستحسن اثراً او يستهجنه الى هذه العوامل المعقدة نفسها .

ولذلك اذا قرأت العدد الماضي ، ووضعت تعليقاتي عليه فان جل ما أصنعه ان أسجل انطباعاتي الخاصة دون ان احرك شيئاً . وليس معنى نقدي انني ارفع مما اقرأه ، وانما ذوقي الشخصي الذي اصطلحت عوامل زمانية ومكانية وثقافية على تكوينه هو الذي يقرر بحسبها ، ولا مفر له منها .

تشاء «الآداب» ان تضرب بسهم وافر في المقالات التوجيهية ، سواء أكان مجالها السياسة او الاجتماع . ومن ذلك مقالة « انسانية لا أممية » او اذا صح التعبير : « قومية انسانية ، لا اممية » . والفكرة التي تدور حولها من افكار الساعة التي تتصارع فيها المذاهب والعقائد . والفكرة بحد ذاتها ليست بموضوعية مجردة ، لان صاحبها يكتبها بعقيدته الخاصة ، وهو مفكر عميق موهوب .

أما الغاية الموجهة فهي الحرص على القومية رغم انفلات الغرب الآن من قيودها نحو « الاممية » التي لا تعترف بكيان شخصي للامة . واذا كانت هنالك رابطة لازمة بين الامم فلتكن الرابطة الانسانية إطاراً للقومية . وهو يحمل على الاممية لانها في رأيه مخالفة لروح الواقع والتاريخ وأصالة تكوين الامة . ويعتبر القومية غير مسئولة عن الشرور التي تولدت منها . ولذلك يدعو الى « تدفئة » القومية العربية بعد برودها ، لأنها الاساس الصالح في نهضة العرب .

وفي عقيدتي ان ليست الدعوة الى القومية بمستغربة ، ولا الدعوة الى الاممية بجناية ، ما دامت الامم تتخبط في تجارب جديدة قائمة على الثورة على القديم ، وطلب الصالح الملائم للأفراد والجماعة . وانما هي تستمد تجاربها من حياتها وتاريخها وكيانها. فلماذا لا تتم التجربة بصمت دون ان تقبلها بحرب ، والزمان وحده يعمل على نصرها او خذلانها ؟

وأما ان القومية تعيد الانسان الميكانيكي المسمر الى الكائن الحي المفكر ، على عكس الاممية فتلك دعوى لا حقيقة لها ، لان هذا الانسان الميكانيكي يحيا اليوم في كل بلد موجه ولن يعيده الى حريته وأمنه الا ان يهدأ هذا الصراع المستعر بين الافكار والمذاهب .

على ان القومية الاشتراكية بعد ان قارعتها « الاممية » ، وأخذت عليها ضيق تفكيرها وحدودها ، احبت ان تقطع عليها الطريق بما أسمته « الانسانية » . وليست الانسانية الا اصل التصميم ، ثم تمتد منه فروع الى الاممية التي تريد ان تطبق الانسانية كواقع ملموس ، لا كضباب غائم .

على ان الامة العربية لم تصل الى شيء من الحكم المذهبي الصحيح . وانما هي نظريات متفتحة مجردة يتخبط فيها افراد يبشرون ولا يقررون . والوصول الى القومية الاشتراكية مرحلة ضرورية قبل الوصول الى الاممية ، او الى ما سماه « صاحبي الدائم » – الانسانية – فهل نحن واصلون ؟

***

وهذا مقال ادبي محض في « ثقافة عصر ابن المقفع » يكتبه الاستاذ رئيف خوري الذي شغله ذلك العصر كثيراً ، واكثر ماشغله منه ابن المقفع باعتباره الرائد الاول الى النثر الاجتماعي الذي خرج من قيود الرسائل الاجتماعية ، والحدود الديوانية ، ليعالج قضية المجتمع الذي بدأ يتعقد ابعد ما تعقدت الحياة فيه. ومتى قلنا النثر الاجتماعي اردنا الادب الملتزم الذي يتمرد على ذاته المنطوية ، ويستغل رسالته التي خلق لها . ولابن المقفع جولة في هذا الباب لم يستكمل النقد دراستها ، وجلاء اسبابها . وهي رسالة اقل ما يقال انها كلفت صاحبها ان يجود بحياته على طريقة الطغاة .

على ان مقدمة المقال كانت من الطول بحيث طغت على تلك المقارنة البارعة الخاطفة بين ضآلة رسالة الشعر ، وفخامة رسالة النثر في ذلك العصر . وحقاً ، نحن مع هذه النتيجة ، على ان تكون خطوط المقارنة اكثر امتداداً .

ويقيني ان الاستاذ رئيف منصب على مباحث اخرى متصلة بالموضوع نفسه ، وهو سيلح عليها الحاح المفكر الواعي لانصاف هذه الشخصية الادبية المجاهدة .

***

ومقال آخر في « شعرنا العربي وديوان العيون الظماء للنور » يكتبه صاحبه بعقيدة قومية واضحة ، يعالج بها الشعر القومي ، ثم يتناول ديواناً حديثاً من دواوينها . ولكن هذا المقال لم يحقق — ويا للأسف — الغاية منه ، لانه وزع نفسه على جبهات واسعة المدى . كل جبهة يقصر عنها الجملة من المقالات . بدأه صاحبه بالقبيلة العربية في الجاهلية ، وفذلكة فلسفية لغوية تبين التصاق الألفاظ العربية بالحوادث . ولا ادري كيف مشت هذه البدعة في بعض الشباب . وكيف اخذتهم هذه النشوة في اللغة العربية وحدها ، مع أن نشأة اللغات العالمية تثبت كذلك ارتباط كل لغة بحوادث أصحابها . ولم تنفرد العربية وحدها بعبقرية خاصة في هذا الموضوع ، ولم ينكر الاقدمون المتعصبون لها العبقرية على غيرها من اللغات .

ثم ينتقل صاحبنا الى الوجد الصوفي المنحط ، والوجد الصوفي البطولي وما بينهما من فروق فنية وروحية ، ومتى يولد هذا ، وأين يكون ذاك ، وهو موضوع ثان . ثم ينتقل الى تعريف المرثية الحاضرة ابنة المأساة الحاضرة التي ينحدر عنها الشعر القومي الأصيل . فيتحدث خطفاً عن شاعر الشباب سليمان العيسى الذي يؤدي الى شاب آخر هو يوسف الخطيب في ديوانه الجديد « العيون الظماء للنور » والنور هنا يرمز الى نور الانبعاث .

أرأيت كم دار الكاتب ، ولف حول عوالم متباينة ليصل الى بيت القصيد؟

وأخيراً وصلنا ... ولكن بقية المقال المعد لتحليل هذا الديوان لم يأت من التحليل الا بخطوط عامة ، لا ينفذ القاريء منها الى أية ملامح فنية ، أو لونية عن هذا الديوان . بل ربما انتهى القاريء من المقال ، وقد قرأ أشياء عذبة كثيرة ، ولكنه لا يقرأ شيئاً عن الديوان . وليس في المقال كله الا ثلاثة أبيات من الديوان ، لو طواها الكاتب لكان خيراً له ولصاحب الديوان . لأن هذا العربي الذي عده « مسئولاً ، ومجرماً ، وطاهراً » قد ملّ امثال هذا الشعر :

ومشيتي قدر ، على أقدامه تتمسح الايام والاقدار

وهذا يذكرني بقول ابن هانيء الاندلسي :

ماشئت ، لا ماشاءت الاقدار فاحكم ، فأنت الواحد القهار

فما هذه « البهورات الكاذبة » ؟ وهذه العواطف المجمجمة في الباطل ؟ اذا كنا نظن ان مثل هذا يثير الحماسة ، ويحل القضية فقد كان علينا الآن أن نكون على سطح المريخ ... كفى ... كفى ! نريد الشعر الذي ينساب انسياباً الى النفس ، كانسياب النور الى العيون الظماء ، ويحفر في ثناياها أخاديد عميقة لا تبلى . الشعر الهادىء البعيد عن الجزالة الفارغة هو الذي يبقى .

أذكر مرة ان الشاعر سليمان العيسى قدم لي هذه القطعة المترجمة ، تدعو ببساطة الى السلم ، وهي مرثاة مستوحاة من المأساة الحاضرة الكبرى . فكانت عندي أبلغ من ملحمة كاملة ، بصدق شعورها ، ورعشة تصويرها . يصور بها الشاعر طفلة من ضحايا القنبلة الذرية اللئيمة ، أتت تزور أهلها :

«انني أنا من يطرق الباب
انكم لا تستطيعون أن تبصروني
لأن الأحياء لا يبصرون الأموات

***

منذ عشر سنوات
مت في « هيروشيما »
فبقيت طفلة في السابعة ، الى الأبد .
لأن الأطفال الموتى لا يكبرون

***

في البدء مست النار غدائر شعري
ثم احترقت عيناي ويداي
ثم أصبحت حفنة من رماد
تذروها الريح .

***

انني لا أطلب اليكم ان تعطوني شيئاً
لأن الطفلة المحترقة هامدة كقطعة ميتة من الورق .
لا تستطيع ان تأكل ...

***

انني أطرق أبوابكم جميعاً
يا أهلي من بعدي !
فأعطوني عهداً بألا تقتلوا الاطفال...

***

وأذكر انني قلت لصاحبي :

الى مثل هذا الشعر ينبغي أن تنصرفوا ، دون ان تفتنكم القوالب القديمة ، والالفاظ المنمقة ، والصور اللامعة كالسراب . ألا تجدون هذه القطعة مؤثرة خالدة ببساطتها ؟

انتهيت من المقال ، وأنا على اعتقاد بأن في نفس كاتبه افكاراً يوجهها نحو ما يريد قسراً ، دون ان يكون لها تعلق بالبحث .

وتأتينا الآن قطعة من الشعر عنوانها « صراع » لشاعرة ناشئة ، وهي تدل على شاعرية لا تزال طافية على زبد السطح . ولكن « الأنا » فيها تتموج بين الاستسلام والصراع . وأجمل ما فيها الصراع بين نفسها المنهزمة المستسلمة ، وبين قلبها الذي يأبى الا الحياة . فيا ترى ، هل هي رمز النفس ، او رمز المرأة المتيقظة التي تشدها قيود المجتمع ، وهي تلح على التحرر ؟ أما تقطيع الأبيات فانه أضعف الروح الموسيقية ، وتركها ناشزة على الآذان .

وننتقل الآن الى مقال كتب على ضوء الطريقة الحديثة في التحليل النفسي الذي طلع به « فرويد » ومن بعده من مدرسته ، عند ما رد اتجاهات العبقرية الى مواطن الغريزة .

وصاحب المقال جريء حين تناول تحليل الشاعر ابو ريشة تحليلاً حديثاً على ضوء هذه النظرية ... حبه للمرأة وخوفه منها . يريدها لحماً ودماً وشعوراً ، ويريدها حجراً مسكوباً . ولكنه مبالغ في الاتكاء على هذه النظرية التي حلل بها عمر نفسه في قصيدة « جان دارك » حين وصفها فتاة تستعر فيها الشهوة ، الشهوة الملحة الملجمة التي انطلقت بها نحو ذلك الطموح ، فكان بذلك مستعيناً بنظرية التحويل السامي !

وأذكر انني رددت مرة على قصيدة عمر التي يقول فيها :

« أخشى تموت رؤاي ان تتغيري « فتحجّري ...!»

رددت بابيات منشورة في مجلة « الاديب » ، اذ جعلت هذه المرأة نفسها تتوسل له ألا يجعلها حجراً ، ولو كان في ذلك خلودها ، لان الحياة وما فيها من حب وأحاسيس ، وشوق وقلق هي سر وجودها ، لا الخلود ، وما قيمة الخلود المتحجر؟ وجعلت عمر فيها « عبقرياً » لا انساناً .

ما أنت بالانسان حين خلقتني ما أنت ، واأسفاه ! الا عبقري

والانسان عندي أجل من العبقري وأخلد .

والمقال يمعن في تحليل نفسي ، متسلسل مركز في تحليل ما سماه الكاتب « تجزؤاً في نفسية الشاعر » ولكنه مبالغ كثيراً ، لان عمر يريد ان يتعالى بدافع السمو الى المرأة غير السدومية . وليس مرد ذلك كله الى ثورة الغريزة الجنسية على الغريزة الجنسية ، لأنني عرفت عمر في ايامه الاخيرة مولعاً « بالتصوف » ، يبحث عن الوجد الصوفي الذي يكتفي بلمح الخاطر ، والجمال العابر ، بعد ان دنسه على مدارج اللذات .

وبعد ، فلماذا لا يكون هذا التحجر مظهراً من مظاهر الاستمتاع بالشيء الذي يهرب من يديه مع النبضات والخفقات؟ ويرى ألوانه تذوي شيئاً فشيئاً ، ولكن ، ألا يكون على سأم منه لو تحجر ؟

على أنها تجربة جديدة قائمة على التحليل النفسي ، ولا بأس بالتحليل النفسي يدخل في تحليل شعرائنا ، ودراسة شعرنا الحديث والقديم معاً .

وهذه قطعة شعرية « الساحل الوضاء » ينظمها الشاعر الكيالي على التقطيع القديم . شاعر يطل من الأعلى على ساحل ارضه المسلوبة ، ومشاعل شطوطها المنصوبة . يجد الأرض أرضه ، وكل شيء من اشيائه ، لكنه ممنوع عليه ان يقترب . ولكنه يقترب بروحه ونظره .. والقطعة تنم عن ترتيب جيد للمشاهد ، من جبال ، وقرى ، وسهول ، وسواحل وموانيء . كل هذه المشاهد تزدحم في خاطره وعيونه حتى تهيجه وتغريه بالعودة الى فردوسه المغصوب .

على أني اردت ان تبرأ القطعة من مثل تشبيهه (كما جرت ابل تنفرها سهام النابل) . وفيها اعتراف صادق بالثمن الذي ضيع هذه الارض حين يقول :

وجريتُ فوق رماله متصابياً وجررتُ ثوب المترف المتكاسل
وصدرتُ عنه ، وقد أصبتُ مباهجي ورويت من لهو الشباب مناهلي !

أيذكر الشاعر ما كان ثمن ثوب المترف المتكاسل ، والمباهج ، والارتواء من مناهل لهو الشباب ؟ ولا تزال آلة العودة عنده الدمعة « انه سيعود ، ويعرف الأجيال أنه « روى من دمعه رياض الفضائل » أما شبعنا دمعاً ، وارتوينا برياض الفضائل ؟ متى يستحيل هذا الدمع البارد دماً فائراً ؟

وهنالك مسرحية « مع آخر انباء العالم » او «أميكلا» المدينة التي اهلكها الصمت . وهي مستمدة من الخيال اليوناني ، وعلى طريقة الحوار اليوناني . وهذا الحوار يدور بين أخرس كان فناناً في الكلام والبيان ، وبين أعمى اصبح لا يطيق الصمت بعد ان صمت من يحق لهم ان يتكلموا .

ملخص جيد من الدراسات في الأدب العربي

ظهر حديثاً

● أحدث سلسلة في الأدب العربي وتاريخه تقع في خمسة أجزاء :
العهد الجاهلي - العهد الإسلامي والأموي - العهد العباسي
العهد الأندلسي وعهد الانحطاط - عهد النهضة

● دراسات موجزة للأدب نصوصاً « وتحليلاً وتاريخاً » تنطوي على كل منهج في أدق تفاصيله ، مع نظرات مجملة على ما لا بد للطالب أن يعرفه لتوسيع ثقافته وحل مشاكل امتحانات البكالوريا .

● نظرات عامة على مختلف عصور الأدب مما لا بد للطالب أن يطلع عليه إذا شاء التوسع .

● مراجع للمطالعة ، وأبحاث للتمرن على معالجة الموضوعات في مختلف أنواعها .

ثمن الجزء ٣٠٠ غ.ل

يطلب من : دار المعارف بيروت
لصاحبها أ. بدران
بناية العسيلي السور - ص.ب ٢٦٧٦
ومن جميع المكتبات الشهيرة في البلاد العربية

ولكن الكلام يسبب له الأيلام ، فيود الأخرس ان يمنعه من الكلام . وهذا الاعمى يطلب ان يعرف الحقيقة في السعادة التي يتحدثون عنها . واذا بهذا الذي يدعي أنه اعطى السعادة هو على قلق من نفسه . ولو لم يكن فيه هذا القلق لما كلف نفسه السؤال . وينتهي الحوار بالرجوع الى الصمت الذي يطلبه الجميع ، وهو ابن الخوف . الكل صامت ، والكل خائف .

الحوار في القطعة ليس بحوار مسرحي حي ، لانه مثقل بالأفكار المتلاصقة ، وهو حوار الخاصة من الناس. ولكن هذا الحوار جاء قاسياً ، يحتاج الى برد الفن .

وهنالك مقالة في « تذوق الشعر » منقولة عن ناقد انجليزي ، فيها لفتة بارعة الى من ينخدعون بطلاب المعنى النثري للشعر دون ان يلحوا على تذوق الناحية الفنية فيه . فهم طلاب معان ، او قيم مجردة . لا يهمهم الشكل الذي توضع فيه ، والناقد يلح على « الصدق الشعوري ، الصدق الروحي » في تقويم القصيدة ، لأن هذا الصدق هو الذي يصله بنفس القارىء ويساعده على الغناء في وجود الشاعر . ثم يعطي الناقد توصيات خاصة بتذوق الشعر ، ولعل هذه المقالة تجعل من مطالعة الشعر فناً خاصاً ، يفك الشعر من قيود المعاني التي يطلبها عادة قارىء الشعر البسيط ، المحدود . وأعجبني في هذا المقال ما انتهى اليه الناقد من ان الشعر الحديث لا يمكن فصله ابداً عن الشعر القديم. وحق هذا عندي ، لان مثل الشعرين كشجرتين تفرقتا كياناً على ظهر الارض ، وانما جذورهما ملتفة ، متعانقة ، متشابكة تحت بطنها . ولسنا في حال مناقشة القول الذي استشهد به « ان القصائد تصنع من كلمات لا من أفكار » لانها في الحق مصنوعة من هذه ومن هذه.

وتلك قصة « وجهي المعفر بالتراب » كتبت كما كثر قصصنا على طريقة « الايحاء الذاتي » الذي يتحدث عنه القاص عن تجربة خاصة عالقة به . ويبدو ان كاتبها جندي ، يقضي الآن ايام تدريبه . وفي مطلع القصة وصف قصير بارع لحياة الجندية وما يساور صاحبها من تبعات وطنية. ويأبى الكاتب الا ان يرسم بجانبه صورة جندي آخر يسخر من كلمة الوطنية ، لانها مرادفة للحقد والثأر والدم . وفجأة تأتيه صورة تلك الغجرية السمراء في حانة الاسبوع الفائت ، فينتقل حاضره الى تلك الزاوية من الماضي ، فيصورها تصويراً رائعاً ... ولا يدري الا انه يمشي ، وهو يرسل من شفتيه صفيراً بلحن شهرزاد . مشاهد تتوالى على الطريق مشاهد الناس ، ومراقب السير المسمر في مكانه ، والوانه المتحركة ، ثم جمود اللون الاحمر الذي يرعبه. انه اللون الاحمر ، وما يوحي اللون الاحمر . ثم يراه اصدقاؤه ، فيدعونه الى الحانة . وفي الحانة يلوح له المصباح الاحمر ، فلا يدري ماذا يرعبه منه ويسمره . « لقد اصبح ذلك اللون شيئاً . لقد اصبح شيئاً مجسداً . ان ذلك الاحمر اصبح وجودي كله . لم أعد انفر منه . اصبحت أحبه ، لقد عرفت نفسي »

واذا به ينتهي الى انه يريد ان يذهب الى ذلك الذي يسخر من وطنيته « انه يريد ان يبقى عالقاً بوجوده الاحمر » .

القصة مكتوبة باسلوب حي ، وفيها ملاحظات بارقة ، ولكن لا أنكر ان النهاية كان فيها تكلف غلب فيها العقل الموحي على الواقع ، لان هذه الوطنية يمكن ان تفهم بدون تجزؤ هذا اللون الاحمر الذي لمع في وجهه على ومضات مختلفة . واني أعيذ هذا الكاتب من ان يخيفه اللون الاحمر ، ولو أوحت به اليه تلك الغجرية الحسناء عند ما صارع حبيبها الثور ، وهاجمه باللون الاحمر .

اما مقال « العالم الخارجي » فهو دراسة فلسفية للدكتور « مرحبا » وتقريب ، كما يراه الفيلسوف الانجليزي « راسل » والمقال فلسفي مكتوب بلغة واضحة ، تساهم في اشراك القارىء في الاطلاع على أحدث التيارات الفلسفية .

اما قصيدة « الطريق القديم » فهي قطعة بسيطة بصورها وايقاعها ، ليس وراءها ذلك الجو الفسيح .

ونأتي الآن الى معركة أدبية صالت فيها الأقلام ، واحتدم الصراع حول خرافة الاشعاع . وهو مقال مؤكد لمقال سابق كتبه احمد ابو سعد . والمقال يتناول الادباء الذين تهمهم

الى مدرسي الانشاء العربي

صدرت اليوم الطبعة الخامسة من :

الانشاء بالمثل

تأليف : كمال البيضاوي

وهو كتاب درس ومطالعة على أحدث أساليب التربية والتعليم ، يجد فيه أساتذة المدارس الاعدادية والثانوية ، كل ما يضمن لطلابهم النجاح في امتحانات « الانشاء العربي » للشهادة الابتدائية الرسمية .

من منشورات : دار البيضاوي - بيروت

ص. ب ٢٩٩٥ تلفون : ٣١٣٠٧

ثمن النسخة المحدد : ١٨٠ ق.ل أو ما يعادلها

ذاتيتهم، والادباء الذين يستمدون أدبهم من مشاكل مجتمعهم. وابو سعد يحاول ان ينكر على الاولين أدبهم لانه غير صادق، ولان اشعاعهم خامد في مصابيحهم، ويدعو الادباء الحقيقيين الى البحث في امور مثقفة من قضايا الناس، ومشاكلهم التي يرتبط بها مصيرهم، وتتوقف عليها سعادتهم

وأنا مع الاستاذ ابو سعد في رسالة الادب، وعدم وقفها على الجمالية المجردة. ولكني لست معه في الحملة على الشعراء الذين يخالفون هذا المذهب، ولا سيما من مضى منهم. لانهم أبناء الطريقة الجمالية الفرنسية، وهي متأصلة فيهم، لا يطيقون الانطلاق من قيودها لو أرادوا وهم سيمسخون ادبهم لو أرادوا التحول عنها. وبدلا من أن نحاول وضعهم في قوالب جديدة، فلننظر الى غيرهم، ولنرجُ الخير في غيرهم.

على أن الادب مهما حاولت اخضاعه لرسالة، فهو يأبى الا ان يتميز بحريته، ويتمرد حتى على الخير والجمال نفسه. وللشاعر ومضات تأتيه حيناً من مجتمعه، وحيناً من نفسه. والفن يهمه ان يرى الصدق الشعوري في هذه الومضات مهما كان مصدرها. وهذا أبو سعد نفسه بعد ان أعطى تلك القصائد الحارة، ماذا يعطي الآن؟ أظن ان الحرارة لا تفرض فرضاً، ولا هي كابر الدم يغذّى بها الضعيف.

اما قطعة «رسالة» فهي من هذا النثر الحديث الذي يتكىء على اختلاف الايقاع، واستخدام تفعيلة واحدة. وهو يخالف بشكله الشكل الكلاسيكي اذ يؤثر الشكل الذي لا يحفل بقيم الالفاظ، والصور الفخمة. ولذلك ترى آذاننا فيه نشازاً لأننا لم نتعوده ولم نألفه. على انها تبقى تجربة لا نعرف عقباها.

وهنالك موضوع اقتصادي عملي يريد ان يعالج علة التوحيد الاقتصادي بين البلاد العربية، ويرجع علة عدم تحقيق هذه الوحدة الى:

١ – اختلاف الفلسفة الاقتصادية المتبعة في كل قطر بحد ذاته.

٢ – والى وجود عناصر قد تتضرر شخصياً من هذا التوحيد، وهنا موطن الداء العياء.

وقصة «الآلة» ادنى الى وصف مشهد ثائر، يقوم به عامل مطوي «في قافلة الدمى المتحركة التي تعيش بلا انسانية، وبلا احساس وبلا شعور على الاطلاق» ومعه عمال مثله، ومن ورائهم رقيب منهم ضخم الجثة، صارم الملامح يتحملون خشونته، وهو لا يزيد الا صرامة في الرقابة، كأن العامل عنده جزء من اجزاء آلته. وفي ساعة ثورة تمرد العامل على الآلة وصاحبها، فحطمها. ماذا كان؟ كان رفاقه من العمال اول من بادروه بالضرب واللطم انتقاماً لمطعمهم الذي يضطهدهم، والآلة التي هي سبب محنتهم. اف لهذا الرغيف الذي يفيد المحتاج اليه!

انها قصة بسيطة ترمز الى نهاية المتمرد الذي يكافح عن المضطهدين الذين يدافعون عن الظلم، ويحمون ظالمهم؛ وهم اجدر الناس بالتحرر والقصة خالية من مفاجآت القصة، لانها الواح مسرودة بسرعة.

وأما كتاب الشهر فقد عرضته عائدة مطرجي عن «مظاهر القرن العشرين» وقدمت له مقدمة توضح سماته وغايته. وليس البحث بجديد. فان الآلة لا يزال يتخبط مصيرها عند المفكرين، ومنهم الراضي عنها، والناقم عليها.

لقد قرأت هذا الملخص بنهم وشوق ولذة، وأشهد ان الكاتبة كانت على احسان وتجويد في فهمها للكتاب، وتلخيصها له بلباقة وتجميع لابرز عناصره.

لم يصر لي ان اقرأ النص الاصلي له، ولكن هذا التلخيص أغناني عنه، وإن أغراني به.

وهو من الكتب الدسمة التي يجدر بالعرب أن يطلعوا عليه ... وأن يفيدوا منه الشيء الكثير. والآلة اليوم – كما قلت – تستبد بمصير الانسان والامم معاً ... الا انها أصبحت أقوى من الانسان ...

والبحث يبدأ بمقدمة مفيدة عن دخول العمل الآلي في حياة الانسان. ثم يبدأ تطورها اللاهب في هذا القرن – حين يتناول هذا التطور مسائل كثيرة في الحياة الانسانية. ومن اهم تطورها ما آل من توسعها الى توسع الاتصال السياسي والاقتصادي بين الامم، والى اخضاع حرية الانسان الى عمل الدولة التي تمتصه وتفقده حتى حريته الشخصية.

من مظاهر التقدم الآلي خلق «دواوين الكتابة» ومشتقاتها، وتتميز بالسرعة الفائقة في تسيير الاعمال – ولكن الكاتب الذي كان يعتمد على انامله، واستعاض عنها بالآلة عن قلمه، هل يمكن ان يفكر بدقة وبعمق كما كان؟ – يجيب الكاتب ان لا ..

هذه المجلة

طبعت في مطابع «الآداب» التي تعلن استعدادها لطبع الكتب والمجلات والنشرات التجارية طبعاً أنيقاً وسريعاً، على آلاتها الاوتوماتيكية.

بيروت – الخندق الغميق – شارع الشدياق

ص. ب ١٠٨٥ تلفون ٢٦٩٩٦

وكذلك غير التقدم الآلي العقلية المنزلية بما قدم لها من تسهيل ، وتوفير للمرأة من اعمالها واوقاتها ...

وكذلك الاعلان الذي اصبح فناً قائماً بنفسه يحرك عواطف الجمهور . ويبحث عن غرائزه . والاعلان اليوم اساتذة وفنانون يعملون كما تعمل الآلة . ولكن الاعلان كالفن لا يعرف الاخلاق ... وانما يريد المصلحة .

وكذلك السياحة وتوسعها ، وثورة السرعة التي سهلت القيام لها كل ذلك بدل من اوضاع الارض ، وغير من ملامح جغرافيتها ... كأنما الارض كانت مغلقة قبل الآلة ، فتفتحت الآن عن خفاياها . ولذلك يتبدل العالم امامنا بأسرع من خواطرنا ، فهل نعاند مولد هذا العالم الجديد ؟

وهناك آلات النسخ التي تغني الانسان عن رؤية محدثه ... انها قد أفادت في التكثير من الكمّ ، ولكنها قضت على هذا الشيء الذي لا يحد ، والذي يكمن في الحضور الانساني .

وهكذا اضر تسرب الآلة الى الفنّ بالفن ، ومسخ التفكير الشخصي حين خضع الفن والادب لعوامل تجارية في النشر ، وخضع للنشر قبل الفكر ، فانعدمت الشخصية المستقلة في العمل ، وطغى عليها (التكتيك الهائل) الذي حطم عناصر المجتمعات الغربية : بين غاية الثقافة غير ذلك (لانها تحتاج في نشأتها ورسوخها الى الفراغ وتجرد الفكر من المشاكل المادية) .

وهكذا يرى الكاتب ان حضارتنا اليوم تؤدي الى فساد مفهوم العلم ، والعلم لا يكون خلاقا الا حين يتجرد .

وهنا ، إذاً ، تكمن العلة ... فرجال الفكر والعلم منقسمون : منهم من يؤمن – متأثراً بالطريقة القديمة – بأن العلم والفكر يجب ان يتجردا عن الغاية ، ومنهم من يؤمن بأن لا ضرر على العلم اذا استطاع ان يستنبط فائدة او غاية من وراء البحث ، لان الغاية الاساسية هي افادة الانسان ، وتيسير حياة الانسان ... وانا من الرأي الثاني – لانه لا يعقل ان يعيش الناس كلهم متجردين لينعموا باللذة المجردة بينما العلماء يتجردون ويخرجون هذه الاشياء التطبيقية لمنفعة الناس ...

وليس على الثقافة ان تعارض ذلك ... لانها تموت . وانما عليها ان توفق بين تجردها وتطبيقها العملي ... فلنجعل الآلة صديقاً ، ولا ننظر اليها عدوة ... لانها ستجرفنا !

وأعيد القول : لنقرأ هذا المقال بتفكر ومتعة ! ولنتخذ منه نموذجاً للتلخيص المفيد للأفكار الكبرى . وليكن ذلك حافزاً للكاتبة الى ان تكتب لنا مثل هذا الفصل .

ولا تزال العاصفة تدوي على ذيول المناظرة بين الدكتور طه حسين ورئيف خوري. ولا تزال التعليقات ترد تترى ... واظن أن المناقشة لا تنتهي .. لان الادب له طبيعة خاصة تفرض نفسها على صاحبها ... وليس هو بقالب مفروض ... وأظن ذلك كافياً ... وقد كان تعليق عبد الله عبد الجبار عميقاً ... بينما تعليق عبد الله يونس لا يزال مأخوذاً برسالة الاديب الاجتماعية (والتربوية) ...

و « مسئولية الانسان » مقال ليس له وجهة خاصة ، يريد ان يعين مسئولية الانسان في العالم والتاريخ . وهو يعتمد على عرض سريع ، بارد حيناً ، ودافيء حيناً ، على أني مؤمن مع الكاتب بتعيين مسئولية الانسان في تقويم الحياة ، وصنع التاريخ بارادته . وصاحبه من أنصار القول بارادة الانسان والشعوب في خلق المصير ، وابداع المستقبل . ولن تكون هنالك ارادة تأتي من الخارج لتتحكم في مصيره ... « فالعالم هو للانسان لانه صانعه فهو الذي يسير به من حالة الى أخرى فيغير معالمه ، ويبدل بقدرته الخلاقة الكثير من أسسه ... والمجتمع لا يمكنه ان يتطور الا بنتيجة عمل افراده . التاريخ ليس شيئاً مستقلاً عن الانسان بل من صنعه . التاريخ يسير بحسب ارادة الانسان . وعنده أن قعود الانسان عن الشعور بمسئوليته جناية لا تغتفر ، لان وجوده يصبح بلا معنى .

ولكن الى اي حد تصل هذه المسئولية ، وهل التاريخ يصنعه الانسان وحده ؟

وتأتي في أواخر القافلة قصة « الاذاعة في المصح » وهي قصة خفيفة. مؤثرة ، جذابة بطريقة سردها ، ووصف لوحاتها العابرة ، ليس فيها عنف المفاجأة ، ولا فورة الشعور . وانما هي لوحة بطلها القدر اذا صح ان يكون القدر بطلاً . قصة فتاة يعرفها القاص جميلة ، ثم يراها مصادفة في المصح الذي جاءه بحكم الاذاعة لاطراب المرضى ، فكان اللقاء مفاجأة قاسية للاثنين ... ويشاء القدر ان يرى نهايتها في تلك الليلة ذاتها. لانها لم تحتمل صدمة اللقاء . وجميل في هذه القصة تقطيعها السريع ، وجريها بسهولة الى غايتها ، وتلوين الطبيعة بما يلائم الاحاسيس ، لان الطبيعة وحدها ليس لها معنى قائم بذاته ... وانما الوانها تنحدر من نفوسنا واحاسيسنا .

وهكذا يجد القاريء فيها الخفة في اللقطات ، والرومانسية الناعمة في في الشعور ، ولكنها لا تخرج عن طريقة الايحاء الذاتي الذي يكون الكاتب فيه بطلاً لقصة .

★

هذه ملحوظاتي العابرة على العدد الماضي ، وجل ما أحب ان اوجه اليه الكتاب ان يلحوا على الموضوعية في أفكارهم ، والشعراء ان يتعمقوا في نقل تجاربهم وشعورهم ، وان يتوخوا البساطة في اسلوبهم ، والقصاص ان ينتقلوا من عالم أنفسهم الى عالم الغير ، لتكثر ملاحظاتهم ، وتتشعب مفاجآتهم ، فليست « الانا » الا عالماً صغيراً ازاء هذا العالم الكبير .

خليل الهنداوي